المرحلة المَكِيّة :

مرحلة مِرانٍ على ضبط النفس والطاعة المطلقة لله ولرسوله

وعندما لم يكن لدى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم العدد الكافي من الرجال المؤمن المجاهد من أمثال أبي بكر، ومصعب بن عمير، وصهيب بن سنان (الرُّومي)، لإدارة مرافق الدّولة الإسلامية إدارة صالحة على أسس روحيّة سليمة رفض صلّى الله عليه وسلّم فكرة التملُّك على قريش وحكمها رفضاً باتًّا لمّا عرضوا عليه الفكرة في أوّل عهده بالرسالة عندما اجتمعوا به وقالوا له فيما قالوا: "إن كنت إنّما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تطلب به الشرف فينا نُسَوِّدك علينا، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناك..."
فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشّرف فيكم، ولا المُلْك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربّي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به، فهو حظّكم في الدّنيا والآخرة، وإن تَرُدّوهُ عليَّ أصبرْ لأمر الله حتّى يحكم الله بيني وبينكم."[٢٨٨]

نستدلّ من ردِّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم على زعماء قريش، أنّه أبرز لهم جانب الرسالة، والكتاب، والهداية، والنصيحة الصادقة، هذه الجوانب كلّها تدعو إلى إصلاح الفرد والمجتمع، وفي ذلك الوقت كان المجتمع المَكّي مجتمعاً فاسداً من أساسه وبحاجة إلى إصلاح جذريّ، وعدد الّذين تقبّلوا رسالة الإسلام

٢٨٨ــ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول (ص)، ص ١١٥.

وصَلُحَت نفوسهم نتيجة لها كان قليلاً جدّاً إذا قيس بالآلاف الكافرة الضّالة التي لا تأتمر بمعروف ولا تنتهي عن منكر من أهل مكَّة.

فلو فرضنا جدلاً، أنّ الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم قبلَ العَرْض الذي عرضه عليه زعماء مكّة من التملُّك عليهم وحكمهم. فهل كان حكمه عليهم سينجح؟

بالطبع لا، لأنّ الوزراء، والمستشارين، والقضاة، والجنود، والشُّرَط، والتجار، وأرباب الصنائع، سيكونون من الفاسدين، أصحاب النفوس الضعيفة، التي لا تأتمر بخُلُق، ولا دين، ولا فضيلة، وفوق كلّ هذا تَرْشِي وتَرْتَشي، وماذا عساه صلّى الله عليه وسلّم يفعل مع هذه الأمّة الضالّة الفاسدة إذ لا قوّة تؤيِّده ولا أعوان ينصرونه.

إذن والحالة هذه، بناءً على هَدْي القرآن الكريم، وسنّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يجب بناء القاعدة الشعبية، المؤمنة، الصالحة، ومن بينها يختار الحاكم الصالح، وجهاز الحكم الصالح الّذي يسير بالأمّة سيرة صالحة، وتُسَيِّره الأمّة بالاتّجاه الصحيح عن طريق المراقبة، والنصيحة الصادقة.

إنَّ الفترة المَكِيّة كانت مرحلة تكوين رفيع المستوى للجيل الأوّل من المسلمين الصادقين المخلصين، خير القُرون، كما وصفهم الله سبحانه وتعالى: (وَالسّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ العَظِيمُ.) (التوبة ٩/١٠٠)

وكما وصفهم الرسول الكريم بقوله: (إنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الّذينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ.)

وقال صلّى الله عليه وسلّم يصف أعمال أصحابه مقارناً بها أعمال الّذين جاءوا من بعدهم: (لا تَسُبُّوا أَصْحابي! فَوَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ.)[٢٨٩]

٢٨٩ــ مسلم، مختصر الصحيح للحافظ المنذري، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ هـ، ص ٤٦٤، حديث ١٧٤٣، ص ٤٦٥، حديث ١٧٤٦.

إنّ الفترة المَكِيّة كانت البُوتَقة التي انصهر فيها ذلك الجيل الأوّل، المؤمن، المجاهد، لقد انصهر ذلك الجيل السامي بالمعاني القرآنية السامية، واحترق بمعاني العبادة، وخرج ذهباً خالصاً من محنة الاضطهاد، والإيذاء، والتشكيك، وتجرّد للآخرة حقَّ التجرُّد، وانسلخ عن الجاهلية انسلاخاً تامّاً، وبذلك وُجِدَ الجيل القادر على حمل الدعوة وصَهْر الناس فيها، حتى إذا جاءت مرحلة الدولة في المدينة كان المِلاك القياديّ مُعَدّاً.

لقد كانت المرحلة المَكِيّة مرحلة مِرانٍ على ضبط النفس والطاعة المطلقة لله ولرسوله، وكانت مرحلة تَعَلُّق بالْمُثُل العُلْيا - وهم رسل الله جميعاً- ولذلك نزلت أكثر قصص الأنبياء في هذه المرحلة...[٢٩٠]

كذلك نزلت معظم الآيات التي تحضُّ على التَّحَلّي بالصبر في الفترة المكيّة، وطبعاً استمرّ نزول الآيات التي تحثُّ على الصبر في الفترة المدنية. بعد إجراء عملية إحصائية بسيطة، وجدنا أنّ كلمة (الصبر) ومشتقاتها وردت ستين (٦٠) مرة في الفترة المكية، ووردت ثلاثاً وأربعين (٤٣) مرة في الفترة المدنية.

ولقد بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا قيمة وأهميّة الرجال المؤمنين في تأييد الرسول ودعوته وتحقيق نصر الله في الأرض، بقوله جلَّ وعلا مخاطباً رسوله الكريم: (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يُخَادِعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ.) (الأنفال ٦٢/٨)

وكرَّرَ الله سبحانه وتعالى القول مظهراً لرسوله الكريم أهمية الرّجال المؤمنين في آية أخرى من نفس السورة: (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ! حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.) (الأنفال ٦٤/٨)

ولقد أثبت هؤلاء المؤمنون أنفسهم، وأنهم أهل للثقة في كل المواطن التي واجهوا فيها عدوَّ الله وعدوَّ رسوله وعدوَّهم. إنهم لم يهنوا ولم يتخاذلوا، بل ثبتوا وضحَّوا بأرواحهم من أجل إعلاء كلمة الحقّ. فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء.

٢٩٠ــ سعيد حوّى، الأساس في السُّنّة، م ١، ص ص ١٩٠-١٩١.

الدَّعوة في ظِلِّ الضعف العسكريّ

وأدرك الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم بثاقب نظره، مهتدياً بوحي الله إليه أهميّة الإيمان في صقل نفوس الرجال وتهذيبها، لهذا كان صلّى الله عليه وسلّم يتجنّب الصراع السياسي، والصراع العسكري مع الكفّار، خاصّة كفّار قريش حفاظاً على حياة أتباعه من المؤمنين الّذين لم يكونوا يملكون العدد والعُدّة الكافية للقيام بهجوم على من ناوأهم واعتدى عليهم من الكفار، أو على الأقل صَدِّ هجومهم إذا هاجموهم، ففي هذه الفترة نزلت سورة الكافرون والّتي تقول: (قُلْ يا أيُّها الكافِرُونَ. لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ. وَلا أنْتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُدُ. وَلا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ. وَلا أنْتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين.)

لقد كَرَّسَ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم كلَّ جهوده في هذه المرحلة للوصول بالدّعوة إلى قلوب النّاس وعقولهم، دون أن يعطي لعدوّه فرصة الاستئصال للدعوة والداعية، بل كان كثير الحرص على تأمين الحماية للدعوة والداعية والمستجيبين، ولقد عَدَّدَ الطرق التي تتأمّن بها الحماية: فمن دخول في حماية، إلى أمر بهجرة، إلى طلب لبعضهم أن يعيشوا في أكناف قبائلهم مستفيداً من الأعراف والعادات والتقاليد.[٢٩١]

إنّ الوضع الأمنيّ للرسول صلّى الله عليه وسلّم وللمسلمين في مكّة لم يكن مريحاً بالمرّة، وقد صوَّرت لنا السِّيَر، والمصادر التاريخيّة المعتمدة، ذلك الوضع المُزري بصورة مفصّلة، ولنستعرض باختصار بعض ما حدث للرّسول الكريم من الاضطهاد عندما ذهب إلى الطائف لطلب النصرة والحماية لتبليغ رسالة ربِّه.

٢٩١ــ سعيد حوّى، الأساس في السنة، م ١، ص ص ١٩٠-١٩١؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ١٤٣.

"لمّا هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمِّه أبي طالب، خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف يلتمس النُّصرة من ثقيف، والْمَنَعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه الإسلام.

وروى محمد بن إسحاق: أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عندما ذهب إلى الطائف، التقى سادة ثقيف يومذاك، وعرض عليهم الإسلام، فلم يقبلوه منه، وسخروا منه، وعندما يئس من خير ثقيف طلب منهم أن يكتموا عنه ما دار بينهم حتى لا يُثيروا عليه النّاس. ولكنّهم لم يفعلوا، وأغْرَوا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا في سَبِّهِ والصياح به، حتّى اجتمع عليه النّاس، وألجأوه إلى حائط[٢٩٢] لعتبة وشيبة، ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، وجلس في ظلّ شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء الطائف.

فلمّا اطمأنَّ في جلوسه، قال: (اللّهمَّ! إليك أشكو ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهَوَاني على النّاس، يا أرحم الرّاحمين! أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يتجهَّمني؟ أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكنّ عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الّذي أشرقت به الظُّلُمات وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو يَحِلَّ عليَّ سخطك. لك العُتْبَى حتّى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلاّ بك.)

وعندما لاقى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما لاقى من الابتلاء والشّدَّة في الطائف، عاد إلى مكّة مهموماً.

ولم يجرؤ على الدخول إلى مكّة بدون حماية، فأرسل في طلب جوار الأخنس بن شريق، فجَبُنَ، وتعلَّل بأنّه حليف، والحليف لا يُجير، كما يقول.

وطلب جوار سهيل بن عمرو، فرفض بحجّة أنّ بني عمرو لا تجير على بني كعب.

وأخيراً أرسل في طلب جوار المطعم بن عديّ، فاستجاب لذلك، وتهيَّأ هو وبنوه لحماية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم."[٢٩٣]

٢٩٢ــ الحائط = البستان الذي حوله سور.

٢٩٣ــ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٧؛
مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ص ٢٢٦-٢٢٩.

إنَّ في قصة ذهابه صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف، وما لاقاه من أذىً من سفهاء ثقيف لعظة وعبرة للدُّعاة الّذين يتأسَّوْن بسيرة الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، فإذا كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم لقي ما لقي من المشاقِّ في سبيل إقامة الدّين، فمن باب أولى أن يلقى الدُّعاة أشدَّ من ذلك، فعليهم أن يتهيّأوا لذلك، لأنّه سبيل الأنبياء والصالحين، ولأنّ حكمة الله اقتضت أن لا ينتصر هذا الدّين بدون عمل وجهد وتضحية البشر.[٢٩٤]

ولمّا عاد مهاجرو الحبشة في المرّة الأولى، دخل كلّ امرئ منهم بجوار رجل من قريش.[٢٩٥]

إنّ الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم لم يطمئنّ ولم يرتح لهذا الوضع من عدم تَوَفُّر الأمن والحماية له ولأتباعه من المسلمين، فكان دائب البحث عن الجهة القادرة على حماية الدّين ونصرته والقيام بنشره.

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو القبائل في الموسم (موسم الحجّ) قبل الهجرة، ويسألهم نصرته ومنعته فكان يلقى منهم تجهُّماً وغلظاً. ولقي من بني عامر بن صعصعة ما لم يلقَ من أحد من العرب. وقال له رجل من بني محارب يوماً: والله لا يؤوب بك قوم إلى دارهم إلاّ آبوا بشرّ ما آب به أهل موسم.

وكان صلّى الله عليه وسلّم يطوف على القبائل، يدعوهم، وعمه أبو لهب خلفه يثبِّط الناس عنه. ولقي من بني حنيفة مثل ما لقي من بني عامر.[٢٩٦]

وأخيراً تكلّل البحث عن الحماية بالنجاح، ووُجِدت القوّة القادرة على حماية الإسلام ونصرته ممثلة بأهل يثرب من الأوس والخزرج الذين أسلموا وتعهّدوا بحماية الإسلام والرسول صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين، وجاء الأمر للرسول صلّى الله عليه وسلّم بالهجرة، وهاجر المسلمون من أهل مكّة إلى يثرب (المدينة) حيث الأمن والحماية.

٢٩٤ــ مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية، ص ٢٣٢، بتصرُّف قليل .

٢٩٥ــ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ص ٢٢٧-٢٢٨.

٢٩٦ــ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ص ٢٣٧-٢٣٨.

وكان الرسول القائد صلّى الله عليه وسلّم آخر من هاجر من المسلمين من مكّة وبصحبته الصِّدِّيق الأكبر، أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، كما روى البلاذري، قال: وخرج الناس مهاجرين متتابعين. فلم يبقَ منهم إلاّ من حبسته قريش... وبقي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعليّ وأبو بكر رضي الله تعالى عنهما، ليس معهم غيرهم.[٢٩٧]

وضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أروع الأمثلة وأعلاها في الأمانة والتّعفّف عن أموال الغير، حتّى ولو كانوا أعداءه، الّذين أرادوا قتله، حيث كانت عنده ودائع لأناس من كفّار قريش، أودعوها عنده رغم العداوة الّتي كانت بينه صلّى الله عليه وسلّم وبينهم، لما عرفوه من أمانته. وإنّما كان يسمّى "الأمين". فوكّل عليّاً رضي الله عنه بردِّها على أهلها. فلمّا وفاهم إيّاها شخص إلى المدينة.[٢٩٨]

وأقام الرسولُ الكريمُ صلّى الله عليه وسلّم الدّولة الإسلامية في المدينة، وأرسى قواعدها على أساس الدّين والعدالة الاجتماعية، كما أمره الحقُّ سبحانه وتعالى بقوله: (إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بما أراكَ اللهُ، وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً.) (النساء ١٠٥/٤)

٢٩٧ــ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٥٩.

٢٩٨ــ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٢٦١.

بناء المجتمع الإسلاميّ الصَّالح

والآن، لننظر كيف بنى الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم المجتمع الإسلاميّ الصالح في المدينة المنوَّرة بعد الهجرة؟ وما هي الأمور الّتي شغلت فكره واستحوذت على اهتمامه؟

إنّ أوّل أمر اهتمّ به الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، هو "الأمن"، أمن أتباعه من المسلمين، الشخصي والدّيني والاجتماعي والاقتصادي، حتّى لا يبقوا عرضة للاضطهاد، والقتل، والتشريد، والتجويع الفردي والجماعي، كما حدث في مكّة طيلة ثلاثة عشر عاماً، حتى اضطرّ إلى إرسال الكثيرين من المسلمين إلى الحبشة، لينعموا ببعض الهدوء والأمن.

قال محمد بن إسحاق يصف عدوان كفّار قريش على المسلمين في مكّة: "ثمّ إنّهم (أي كفّار قريش) عَدَوْا على من أسلم، واتَّبع رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم من أصحابه. فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذّبونهم بالضّرب، والجوع، والعطش، وبرمضاء مكّة إذا اشتدَّ الحَرُّ، من استضعفوه منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفْتَن من شدَّة البلاء الّذي يصيبهم، ومنهم من يصلُب لهم ويعصمه الله منهم."[٢٩٩]

عن مجاهد، قال: إنّ أوّل من أظهر الإسلام [في مكّة] سبعة: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأبو بكر، وبلال، وصهيب، وخَبّاب، وعَمّار، وسُمَيَّة أم عمّار، فأمّا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فمنعه عمُّه، وأمّا أبو بكر فمنعه قومه، وأخِذ الآخرون، فألبسوهم أدراع الحديد، ثمّ صهروهم في الشمس حتى بلغ الجهد منهم كلّ مبلَغ، فأعطوهم ما سألوا، فجاء إلى كلّ رجل منهم قومُهُ بأنطاع الأدَم (بُسُط

٢٩٩ــ ابن كثير، مختصر السيرة، ص ٨٥.

الجِلْد) فيها الماء، وألقوهم فيه، وحملوا بجانبه، إلاّ بلالاً، فإنّه هانت عليه نفسه في الله حتى ملُّوه وجعلوا في عنقه حَبْلاً، ثمّ أمروا صبيانهم أن يشتدّوا به بين أخشَبَيْ مكّة (جبلان محيطان بمكّة)، فجعل بلال يقول: أحَد، أحَد.[٣٠٠]

وهذا الزُّبَيْر بن العوّام عذَّبه عمُّه بالدخان لكي يترك الإسلام فلم يفعل، وهاجر إلى الحبشة.[٣٠١]

ولننظر إلى الأخلاق الإسلاميّة السّامية والتي لا يُساميها أيّ خُلُق في الدنيا، والتي صدرت عن السيِّدة النهديّة، وابنتها، اللتين كانتا تُعَذَّبان من قِبَل سيّدتهما الكافرة. هذه المرأة الكافرة بعثت السيِّدة النهديّة وابنتها تطحنان لها، فسمعها أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه وهي تقول لهما: والله! لا أعتقكما أبداً.

فقال أبو بكر: حِلٌّ، يا أمَّ فلان!

فقالت: حِلّ، أنت أفسدتهما، فأعتقهما!

فقال: فبكم هما؟

قالت: بكذا وكذا.

قال: قد أخذتهما، وهما حُرَّتان، أرْجِعا إليها طحينها!

قالتا: أوَنفرغ منه يا أبا بكر ثمّ نردّه إليها.

قال: أوَذلك إن شئتما.[٣٠٢]

بالإضافة إلى التعذيب البدني مارست قريش التعذيب الغذائي ضدَّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه من المسلمين وأقاربه من بني هاشم وبني المُطَّلب الّذين أيَّدوه ونصروه، فحصروهم في شِعْب أبي طالب، وفرضوا عليهم حصاراً اقتصادياً محكماً لمدّة ثلاث سنوات.[٣٠٣]

٣٠٠ــ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١، ص ص ٤٣٤-٤٣٥.

٣٠١ــ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١، ص ٣٤٢.

٣٠٢ــ ابن كثير، مختصر السيرة، ص ٨٦؛ ابن حنبل، فضائل الصحابة، ج ١، ص ١٢٠.

٣٠٣ــ ابن كثير، مختصر السيرة، ص ص ٩٠-٩١.

وكان المشركون أقوياء متسلّطين، والمؤمنون ضعفاء مضطهدين، وقد صَوَّر الله سبحانه وتعالى حالتهم تلك بقوله: (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ.) (الأنفال ٢٦/٨)

واستمرّ الحال على هذا المنوال من التعذيب والقتل والتجويع حتّى شرح اللهُ صدورَ أهل يثرب (المدينة) للإسلام، فبايعوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على أن يمنعوه ممّا يمنعون منه نساءهم وأبناءهم.[٣٠٤]

كان هذا أوّل مطلب طلبه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أهل يثرب ووافقوه عليه وتعهّدوا له به.

وقال عبد الله بن عبّاس يصف شجاعة الأنصار: "ما اسْتُلَّت السيوف، ولا زحفت الزُّحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتّى أسلم ابنا قَيْلة." يعني الأوس والخزرج، وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر، من الأزد."[٣٠٥]

وهاجر أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من مكّة إلى المدينة حيث الأمن ولكن لا غذاء يكفيهم، لأنّهم هاجروا إلى الله بأنفسهم، وتركوا كلّ ما يملكون من مال ومتاع في مكّة، لأنّ الكفّار منعوهم من حمل أموالهم معهم، ومنهم من اشترى نفسه من المشركين بماله، وهاجر بنفسه، مثل ما فعل صهيب بن سنان، حين أراد الهجرة، قال له كفّار قريش: "أتيتنا صُعلوكاً حقيراً، فكثُر مالُكَ عندنا وبلغت الّذي بلغتَ، ثمّ تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتُخَلُّونَ سبيلي؟

قالوا: نعم.

قال: فإنّي قد جعلت لكم مالي.

فبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: ربح صهيب، ربح صهيب."[٣٠٦]

٣٠٤ــ ابن كثير، مختصر السيرة، ص ١٣٧.

٣٠٥ــ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، م ١، ص ١١٨.

٣٠٦ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٢، ج ٣، ص ص ١٧١-١٧٢.

عُنصُرا الأمن والغِذاء

إنَّ عُنصُرَي الأمن، والغذاء، هما عنصران، رئيسيّان، وهامّان جدّاً، في حياة كلّ فرد، أو جماعة، أو أمّة، ولقد امتَنَّ الله سبحانه وتعالى على قريش إذ وفَّر لهم هذين العنصرين، حيث قال عَزَّ من قائل: (لإِيلافِ قُرَيْشٍ. إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ.) (قريش ١٠٦/١-٤)

وبتوفُّر هذين العنصرين الأساسيين لقريش، أصبحت قريش سيِّدة الجزيرة العربيّة كلّها بلا منازع.

كذلك دعا إبراهيمُ عليه السّلام ربَّه أن يوفِّر الأمن والغذاء لأهل مكّة كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ! اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً، وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ.) (البقرة ١٢٦/٢)

وسار الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم على هَدْي القرآن الكريم، وعمل على توفير الغذاء للمهاجرين، لأنّ الأمن أصبح متوفِّراً بسبب القوّة العسكريّة للأنصار من أهل المدينة، هذه القوّة العسكريّة المَحَلِّيَّة ازدادت قوّة على قوّة بانضمام العنصر العسكري المَكِّيّ إليها.

الاستعداد الحربيّ

وحَثَّ الرسولُ الكريم صلّى الله عليه وسلّم المسلمين على التدريب العسكري، إذ مرَّ ذات يوم بجماعة من المسلمين يتدرَّبون على رمي السهام، فقال لهم مشجِّعاً: (إرْمُوا بَنِي إسْماعِيلَ! فإنَّ أباكُمْ كانَ رامِياً.)[٣٠٧]

وعن عُقْبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: (إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ بالسَّهْمِ الْواحِدِ ثلاثةَ نَفَرٍ الجَنَّةَ: صانِعُهُ يَحْتَسِبُ في صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالرّامِي بهِ، وَمُنْبِلُهُ. إرْمُوا وَارْكَبُوا! وَإنْ تَرْمُوا أحَبَّ إلَيَّ مِنْ أنْ تَرْكَبُوا.)[٣٠٨]

وفي نفس الحديث الشريف نهى الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم عن اللّهْو إلاّ في ثلاثة مواضع، وهذه المواضع الثلاثة لها فائدة عسكرية، حيث قال صلّى الله عليه وسلّم: (لَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ إلاّ ثلاثٌ: تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمُلاعَبَتُهُ أهْلَهُ، وَرَمْيُهُ بقوْسِهِ وَنَبْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَما عَلِمَهُ، رَغْبَةً عَنْهُ، فإنَّها نِعْمَةٌ تَرَكَها." أو قال: نِعْمَةٌ كَفَرَها)[٣٠٩]

وفي رواية أخرى عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (إرْمُوا، وَارْكَبُوا! وَإنْ تَرْمُوا، أحَبَّ إلَيَّ أنْ تَرْكَبُوا، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ، إلاّ ثلاثٌ:

١ـ تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ.

٢ـ وَمُلاعَبَتُهُ زَوْجَتَهُ.

٣ـ وَرَمْيُهُ بِقوْسِهِ وَنَبْلِهِ.

وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ ما عَلِمَهُ، فَهْيَ نِعْمَةٌ كَفَرَها.)[٣١٠]

٣٠٧ــ البخاري، صحيح، باب الجهاد.

٣٠٨ــ أبو داوود، سنن، م ٣، ص ص ٢٨-٢٩.

٣٠٩ــ أبو داوود، سنن، م ٣، ص ص ٢٨-٢٩.

٣١٠ــ الطبراني، مسند الشاميين، ج ١، ص ٣٥٨، حديث ٦١٦.

ممّا تقدَّم نستنتج أنّ الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم حَثَّ المسلمين على تعلُّم الرّمي، وهذا يعني بناء القوّة الدّفاعيّة الهجوميّة للمسلمين، وحثَّهم على ملاعبة الزَّوجات مِمّا ينتج عنه إنجاب القوّة البشرية التي هي عماد القوَّة العسكريّة، وفي هذا المجال حثَّ الرسولُ صلّى الله عليه وسلّم رجالَ المسلمين على الزّواج من المرأة الوَدُود الوَلود، وأوصاهم بتربية الخيول وتدريبها، هذه الخيول كانت تمثِّل القوّة الهجوميّة الضاربة للجيوش في الزمن الماضي، وفي العصر الحاضر تنازلت عن مكانتها العسكريّة للدَّبّابات، وتنازلت السهام للصواريخ والمدفعيّة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "عَلِّمُوا غِلْمانَكُمُ العَوْمَ، وَمُقاتِلَتَكُمُ الرَّمْيَ."[٣١١]

وكانت العرب تسمّي من كان يحسن الكتابة، والعوم، والرمي، الكامل.[٣١٢]

لم يتوقف المسلمون عند هذا الحدِّ في بناء قوَّتهم الأمنية، بل زوَّدوها بكلّ ما تحتاج إليه من سلاح، وعتاد، وغذاء، من صنع أيديهم في بلادهم، فكان منهم، الصَّيْقل، صانع السيوف، وناحِتُ القِداح، ورائش السهام، وصانع الرماح والدروع إلى آخر ما يحتاجه الجيش من سلاح وكراع، ومُرَبِّي الخيل وسائسها الذي يشرف على نتاجها، وتربيتها، وسياستها، وتدريبها.

وقيامهم بكلّ هذه الأعمال والصناعة الحربيّة حرّرهم من أن يكونوا رهينة بأيدي قوى خارجيّة معادية تقطع عنهم المدد العسكري اللازم في ساعة العُسْرة، كما هو حال المسلمين اليوم باعتمادهم العسكري المطلق على القوى الخارجية المعادية للإسلام والمسلمين، هؤلاء المسلمون، مسلمو أيّامنا الّذين يقرأون "سورة الفاتحة" ما لا يقلُّ عن عشرين مرّة في اليوم في صلواتهم وأدعيتهم وغيرها من أمورهم الحياتية اليومية المختلفة، هذه السورة الكريمة التي تقول فيما تقول: (إيّاكَ نَعْبُدُ وَإيّاكَ نَسْتَعِينُ.)

٣١١ــ ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص ١٥٠.

٣١٢ــ الدياربكري، تاريخ الخميس ، ج ٢، ص ٢٤٤.

يُرَدِّد المسلمون هذه الكلمات الربّانية، السامية، والتي تحثُّهم على طلب العَوْن من الله سبحانه وتعالى، ولكنّهم يمُرُّون عليها مَرَّ الكرام، ويتوجَّهون بطلب العَوْن من كلّ جانب إلاّ من الله سبحانه وتعالى، فحَلَّ عليهم قول الله سبحانه وتعالى: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ.) (البقرة ٢/٦١)

كذلك أمر اللهُ سبحانه وتعالى المسلمين في الماضي، والحاضر، والمستقبل، بالاستعداد الحربي المُكثَّف للمحافظة على السلام، سلامهم، وسلام الآخرين، أي ما يسمِّيه السياسيون، وعلماء السياسة، "السلام المسلَّح"، فهَذا السلام المُسَلَّح، هو مبدأ إسلاميّ، إلهيّ، كما قال سبحانه وتعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ، وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ في سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ. وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ، فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.) (الأنفال ٨/٦٠-٦١)

وطبَّق الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم هذه الأوامر الرَّبّانيّة ونفَّذها تنفيذاً فِعليّاً، كما روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: "كانت أموال بني النضير ممّا أفاء الله على رسوله مِمّا لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خاصّة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة، وما تبقّى يجعله في الكراع والسلاح عُدَّةً في سبيل الله عزَّ وجَلَّ."[٣١٣]

وروى البلاذري: "فكانت أموال بني النضير خالصة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكان يزرع تحت النخل في أرضهم، فيدخل من ذلك قوتَ أهله وأزواجه سَنَة، وما فضل جعله في الكراع والسلاح عدَّةً في سبيل الله."[٣١٤]

ويروى أنّه كان عند أبي بكر وعمر من ذلك السلاح الّذي اشتُريَ في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[٣١٥]

٣١٣ــ مسلم، صحيح، ج ٢، ص ٥٢؛ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٤١٥.

٣١٤ــ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣١، ص ٣٣.

٣١٥ــ الواقدي، المغازي، م ١، ص ٣٧٨.

وسار الخلفاء الراشدون على هَدْيِ القرآن وسُنَّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم في استعدادهم الحربيّ، فهذا الخليفة الراشد عمر الفاروق رضي الله عنه كان قد اتّخذ في كلّ مِصرٍ (ولاية) على قدره خيولاً من فضول أموال المسلمين عُدَّةً لما يعرض، فكان من ذلك بالكوفة أربعة آلاف فرس، وكان قيِّمه عليها سلمان بن ربيعة الباهليّ في نفر من أهل الكوفة، يُصَنِّع سوابقها ويجريها كلّ يوم.
وبالبصرة نحو منها، قيِّمه عليها جَزْء بن معاوية، وفي كلّ مِصرٍ من الأمصار على قدره.[٣١٦]

واستمرَّ أمر الاستعداد الحربي في كلّ العصور الإسلاميّة الأولى. قال صفوان بن عمرو: "كنت بباب عمر بن عبد العزيز، فخرجت خيل مكتوب على أفخاذها: عُدَّةٌ لِلَّهِ.
وفي حديث آخر بمعناه: عُدَّةٌ في سَبيلِ الله."[٣١٧]

٣١٦ــ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٣٨٩.

٣١٧ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١١، ص ١٠١.

الحرب النَّفْسِيَّة

عنصر آخر لا يقلّ أهميّة عن الاستعداد الماديّ والآليّ استخدمه الرسول صلّى الله عليه وسلّم ضدّ أعدائه، وهو العامل النفسي، وبثّ الرّعب في نفوس الأعداء بمجرّد إعلان الحرب عليهم، وقال صلّى الله عليه وسلّم: (أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطهُنَّ أحَدٌ قبْلِي:

١ـ نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ.

٢ـ وَجُعِلَتْ لِيَ الأرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، فَأيُّما رَجُلٍ مِنْ أمَّتِي أدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ.

٣ـ وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قبْلِي.

٤ـ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ.

٥ـ وَكانَ النَّبيُّ يُبْعَثُ إلى قوْمِهِ خاصَّةً وَبُعِثْتُ إلى النّاس عامَّةً.)[٣١٨]

وفعل الرعب فعله في الأعداء في غزوة المُرَيْسيع، كما روي عن جُوَيْرية بنت الحارث، أم المؤمنين، قالت: "أتانا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن على المُرَيْسيع، فأسمع أبي يقول: أتانا ما لا قِبَلَ لنا به، قالت: وكنت أرى من الناس والخيل والعِدَّة ما لا أصف من الكثرة، فلمّا أسلمت، وتزوَّجني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ورجعنا، جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى، فعرفت أنّه رعب من الله."

وكان رجل منهم قد أسلم يقول: " لقد كنّا نرى رجالاً بيضاً على خيل بُلْق، ما كنّا نراهم قبلُ ولا بعدُ."[٣١٩]

٣١٨ــ البخاري، مختصر الصحيح، تحقيق إبراهيم بركة وأحمد راتب عرموش، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ج ١، كتاب التيمم، ص ٦٧، حديث ٢٢٤؛ الدارمي، سنن، ج ٢، كتاب السيَر، باب الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا، ص ٢٢٤.

وفعلت الحرب النّفسيّة فعلها في القبائل المُرتدّة بعد انتقال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الرفيق الأعلى، وكان صلّى الله عليه وسلّم قد بعث بعثاً ضدّ الروم بقيادة أسامة بن زيد، لكنّه صلّى الله عليه وسلّم انتقل إلى الرفيق الأعلى في الجنّة قبل إنفاذ ذلك البعث، وآنتُخِب أبو بكر رضي الله عنه خليفة، وآرتدّت العرب، ونهض أبو بكر رضي الله عنه إلى محاربتها وردّها إلى حظيرة الإسلام، وفي نفس الوقت قرَّر إنفاذ جيش أسامة لحرب الروم، فأشار عليه بعض الصحابة أن يبقي الجيش لحماية المدينة، فلنستمع إلى ردّ الصّدّيق الأكبر على هؤلاء الصحابة، كما رواه أبو هريرة، قال: "والله الّذي لا إلّه إلاّ هو! لولا أنّ أبا بكر استُخلِف ما عُبدَ الله، ثمّ قال الثانية، ثمّ قال الثالثة. فقيل له: يا أبا هريرة! أنظُر ماذا تقول! فقال: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجّه أسامة بن زيد في سبع مائة إلى الشام، فلما نزل بذي خُشُب قُبضَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، وارتَدَّت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه (الى أبي بكر) أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: يا أبا بكر! ردَّها ولا توجِّه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدَّت العرب حول المدينة.

فقال: والّذي لا إله إلاّ هو! لو جرَّت الكلاب بأرجل الناس ما رددت جيشاً وجّهه رسول الله، ولا حللت لواء عقده رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فوَجَّهَ أسامة. فجعل لايمرُّ بقبيل يريدون الإرتداد إلاّ قالوا: لولا أنّ لهؤلاء قوّة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن نَدَعُهُم حتّى يَلْقوا الروم، فلقوا الروم، فهزموهم، وقتلوهم، ورجعوا سالمين، فثبَتوا على الإسلام."[٣٢٠]

كذلك استعمل خالد بن الوليد، سيف الله المسلول رضي الله عنه، الحرب النفسية مرّتين في حربه مع الروم.

المرّة الأولى في غزوة مؤتة بعد استشهاد الأمراء الثلاثة الّذين أمَّرهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الجيش المسلم، وهم: جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة.

٣١٩ــ الذهبي، تاريخ الإسلام، م١، سفر ١، ص ٢١٥.

٣٢٠ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ١٧٩.

بعد استشهاد عبد الله بن رواحة مساءً سلّم المسلمون الراية وإمرة الجيش إلى خالد بن الوليد، بات خالد بن الوليد، فلمّا أصبح غَدَوْا، وقد جعل مقدّمته ساقة (أي مؤخَّرة)، وساقته مقدِّمة، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة، فأنكر الروم ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم، وقالوا: قد جاءهم مَدَدٌ، فرُعِبوا، فانكشفوا منهزمين، فقُتِلوا مقتلة لم يُقتلها قوم.[٣٢١]

والمرَّة الثانية، في معركة اليرموك عندما بعث إليه باهان قائد الروم: "إن رأيتَ أن تخرُج إليَّ في فوارس وأخرج إليك في مثلهم أذاكرك أمراً لنا ولكم فيه صلاح وخير. ففعل خالد بن الوليد، فواقفه مليّاً، فكان فيما عرض عليه، أن قال: قد علمت أنّ الّذي أخرجكم من بلادكم غلاء السّعر وضيق الأمر بكم، وإنّي قد رأيت أن أعطي كلّ رجل منكم عشرة دنانير وراحلة، تحمل حملها من الطعام والكسوة والأدْم، فترجعون بها إلى بلادكم، وتُعَيِّشون بها أهاليكم سنتكم هذه، فإذا كان قابل بعثتم إلينا فبعثنا إليكم بمثله، فإنّا قد جئناكم من الجيوش والعدد بما لا قِبَلَ لكم به. فقال خالد: ما أخرجنا من بلادنا الجوع ولا ضيق الأمور، ولكنّا معشر العرب نشرب الدّماء، فحُدِّثنا ألاّ دماء أحلى من دماء الرّوم، فأقبلنا نهريق دماءكم ونشربها. قال: فنظر أصحابه بعضهم إلى بعض، فقالوا: هذا ما كنّا نُحَدَّث به عن العرب عن شربها الدِّماء."[٣٢٢]

٣٢١ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ص ١٥٤-١٥٥.

٣٢٢ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ص ٢١٣-٢١٤.

نَقْل المعركة إلى أرض العَدُوّ

بالإضافة إلى الاستعداد الحربي المادّي والآليّ المكثَّف عمل الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم على نقل المعركة إلى أرض العدوّ، بعد أن غزته قريش ثلاث مرّات في السنوات الأولى لإنشاء الدّولة الإسلامية الفتيَّة، في معركة بدر، وأحُد، والخندق. وكانت الخندق آخر مرّة تغزو فيها قريش الرسول في المدينة. ولمّا انصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الخندق، قال: "ألآنَ نَغْزُوهُمْ - يعني قريشاً - وَلا يَغْزُونَنا"، فكان كذلك حتّى فتح الله على رسوله صلّى الله عليه وسلّم مكّة.[٣٢٣]

وغزا الرسول صلّى الله عليه وسلّم القبائلَ الأخرى التي كانت حَوْل المدينة، كما أمره الله سبحانه وتعالى بقوله: (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ.) (التوبة ١٢٣/٩)

وشدَّد الهجوم على كفّار العرب بشكل عامٍّ، كما أمره الله سبحانه وتعالى بقوله: (يا أيُّها النَّبيُّ! جاهِدِالْكُفّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.) (التوبة ٧٣/٩)

وعمل الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأمر الله سبحانه وتعالى حتى أسلمت جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها قبل انتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى في الجنة بقليل.

٣٢٣ــ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٩٣.

بَثُّ العُيون والأرصاد

كذلك بَثَّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم العيون والأرصاد بين القبائل، خاصّة الكبيرة والقويّة منها، والّتي كانت تشكّل خطراً عسكريّاً على المدينة، لينقلوا له على جناح السرعة أخبار استعدادهم العسكري لغزو المدينة، وحال وصول الأخبار إليه صلّى الله عليه وسلّم كان يُوَجِّه جنود الإيمان إلى تلك القبائل، أحياناً بقيادته هو نفسه، وأحياناً كثيرة بقيادة قوّاده العسكريين المظفّرين الّذين كان النصر حليفهم في كلّ معاركهم التي خاضوها مع عدوِّهم.

وكان صلّى الله عليه وسلّم كلّما نوى غزوة كَنَّى عنها، كما روى الطبري: "كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قلّما يخرج في غزوة إلاّ كَنَّى عنها، وأخبر أنّه يريد غير الّذي يصمِد له، إلاّ ما كان من غزوة تبوك، فإنّه بَيَّنَها للنّاس لبعد الشقّة وشدّة الزمان وكثرة العدوّ الّذي يصمِد له، ليتأهَّب الناس لذلك أهبته."[٣٢٤]

كان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يعمل ذلك كي يفاجِئ العدوّ وهو على غير استعداد، لأنّه كان يعلم تمام العلم أنّ لأعدائه عيوناً وأرصاداً في المدينة ينقلون إليهم أخباره وأخبار المسلمين.

روي عن عبد الله بن أُنَيْس، قال: دعاني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: إنّه بلغني أنّ خالد بن سفيان بن نُبَيْح الهُذَلي يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بنخلة أو بعُرَنة ـ فائته فاقتله.

وخرج عبد الله بن أُنَيْس في مهمّته التي أوكلها إليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم وقتل خالد بن سفيان الهذلي وعاد سالماً.[٣٢٥] وهكذا توقف غزو المدينة.

٣٢٤ــ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٠١.

٣٢٥ــ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٥٦.

وأرسل صلّى الله عليه وسلّم عمروَ بن العاص في ثلثمائة من سَراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرساً إلى ذات السلاسل، وسببها، أنّه بلغه صلّى الله عليه وسلّم أنّ جمعاً من قضاعة تجمّعوا للإغارة [على المدينة].[٣٢٦]

وفي معركة الخندق عندما اشتدّ الحصار على المسلمين في المدينة، أراد الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم أن يستطلع خبر القوم، فالتفت إلى أصحابه، كما روى حذيفة بن اليمان: "والله! لقد رأيتنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالخندق، وصلّى هَويّاً من اللّيل، ثمّ التفت إلينا، فقال: مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثمّ يرجع ـ يشرط له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه يرجع، أدخله الله الجنّة! فما قام رجل، ثمّ صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هَويّاً من اللّيل، ثمّ التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منّا رجل، ثمّ صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هَويّاً من اللّيل، ثمّ التفت إلينا، فقال: مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثمّ يرجع ـ يشرط له رسول الله الرّجعة ـ أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنّة! فما قام رجل من القوم من شدّة الخوف وشدّة الجوع وشدّة البرد، فلمّا لم يقم أحد دعاني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلم يكن لي بُدٌّ من القيام حين دعاني. فقال: يا حذيفة! إذهب، فادخل في القوم، فانظر ما يفعلون، ولا تحدثنّ شيئاً حتّى تأتينا. قال: فذهبت، فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقِرُّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءً. فقام أبو سفيان بن حرب، فقال: يا معشر قريش! لينظر امرؤ جليسه! قال: فأخذت بيد الرجل الّذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان. ثمّ قال أبو سفيان: يا معشر قريش! إنّكم والله! ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكُراع والخُفُّ وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الّذي نكره، ولقينا من هذه الرّيح ما ترون، والله ما تطمئنّ لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإنّي مُرتحِل. ثمّ قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثمّ ضربه، فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلاّ وهو قائم. ولولا عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليّ ألاّ أحدث شيئاً حتّى آتيه، ثمّ شئت لقتلته بسهم.

٣٢٦ــ الدياربكري، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٧٥.

قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو قائم يصلّي في مِرْطٍ لبعض نسائه مُرَحَّل، فلمّا رآني أدخلني بين رجليه، وطرح عليّ طرف المِرط، ثمّ ركع وسجد، فأذلقته. فلمّا سلّم أخبرته الخبر. وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم. فلمّا أصبح نبيُّ الله صلّى الله عليه وسلّم انصرف إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السّلاح."[٣٢٧]

نستخلص من هذه القصّة عدّة دروس، منها:

١ـ أهميّة التّجسّس على العدوّ واستطلاع أخباره ونواياه وخططه العسكرية.

٢ـ حالة الخوف والرّعب الّتي وقع المسلمون تحتها من جرّاء الحصار المتواصل لمدّة تقرب من الشهر لدرجة أنّه لم يجرؤ أحد على الخروج خارج المدينة، وحالتهم هذه وصفها الله بقوله: (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً. إِذْ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونا. هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً. وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مّا وَعَدَنا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً.) (الأحزاب ٩/٣٣-١٢)

٣ـ تحديد الرسول صلى الله عليه وسلّم مهمة رجل مخابراته بالإطلاع وجمع المعلومات عن العدو فقط، وإلاّ فإن مهمته ستفشل. وهذا ما تفعله الدول في العصر الحديث فيما يتعلق برجال مخابراتهم وجواسيسهم.

٤ـ الطاعة والإنضباط، حيث قام حذيفة بإطاعة أوامر الرسول بكلّ دقة، ولولا طاعته للرّسول صلّى الله عليه وسلّم لقتلَ أبا سفيان برميه بسهم في ظلام اللّيل. ولو فعل ذلك لفشل في مهمته، وألقي القبض عليه وقُتل.

٣٢٧ــ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ص ٥٨٠-٥٨١.

الطَّاعة والانضِباط

وهذا ما عمله الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم طيلة حياته، ليل نهار، عملاً بهَدْيِ الله سبحانه وتعالى، حيث يقول: (إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً.) (النساء ١٠٣/٤)

الكتاب الموقوت هنا هو المواعيد المحدّدة، والالتزام بهذه المواعيد المحدَّدة يُعَلّم الناسَ الانضباط، وعندما لا يلتزمون بهذا الانضباط تضيع أمورهم ويخسرون في جميع مجالات حياتهم المدنيّة والعسكرية، كما حدث في معركة أحُد، "لمّا برز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المشركين بأُحُد أمر الرّماة، فقاموا بأصل الجبل في وجوه خيل المشركين، وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم إن رأيتم أنّنا قد هزمناهم، فإنّنا لا نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم. وأمَّرَ عليهم عبد الله بن جُبَيْر.

وهزم المسلمون المشركين. فلمّا نظر الرّماةُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه في جوف عسكر المشركين ينتهبونه، بادروا الغنيمة، فقال بعضهم: لا نترك أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وانطلق عامَّتهم، فلحقوا بالعسكر، فلمّا رأى خالد بن الوليد ـ قائد خيل المشركين في ذلك الوقت قِلَّة الرُّماة، صاح في خيله، ثمّ حمل، فقتل من تبقى من الرّماة، وحمل على أصحاب النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم. فلمّا رأى المشركون أنّ خيلهم تقاتل، تنادَوا فشدُّوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم."[٣٢٨]

وجُرِحَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكاد أن يُقْتَلَ في تلك المعركة لولا أن رحم ربُّكَ.

٣٢٨ــ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ص ٥٠٩-٥١٠.

وأمّا من تأدَّب بأدب الإسلام وتعَوَّد الطاعة والانضباط، مثل خالد بن الوليد رضي الله عنه. نفس خالد الّذي هزم المسلمين في أحُد- نراه بعد أن أسلم ودخل الإيمان في قلبه، يضرب لنا أرْوَعَ الأمثلة في الطاعة والانضباط. خالد قاهر الرُّوم والفُرْس، سيف الله المسلول، عندما كان في قمّة مجده العسكري، عزله عمر بن الخطاب، خليفة المسلمين، والقائد الأعلى لجيش المسلمين عن قيادة جيش المسلمين في الشام، وسلّم القيادة إلى أبي عبيدة بن الجَرّاح، خِيفَ أن يثور خالد، وتحدث فتنة من جرّاء عزله إذا بلغه الخبر، فلمّا بلغه ذلك، قال: "والله! لو وَلَّى عَلَيَّ عمرُ امرأةً لسمعت وأطعت."[٣٢٩]

ويُروى، أنّه قيل له: أتُحارب وقد عزلك عمر؟ فقال: إنّي لا أحارب من أجل عمر، إنّما أحارب من أجل الله.

لم يكتَفِ عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد عن القيادة، بل حاسبه حساباً دقيقاً على كلّ ما كان يملك. ومرّةً أخرى أطاع خالد أوامر قائده الأعلى خليفة المسلمين، حيث يروى: "لمّا تولّى عمر بن الخطاب الخلافة عزل خالد بن الوليد عن إمارة جيوش المسلمين في الشام، فكتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجرّاح: إنْ خالد أكْذَبَ نفسَه فهو أمير على ما هو عليه، وإن هو لم يُكْذِب نفسَه، فأنت الأمير على ما هو عليه؛ ثمّ انزع عمامته عن رأسه، وقاسمه ماله نصفين.

فلمّا ذكر أبو عبيدة ذلك لخالد، قال: أنْظِرْني، أسْتَشِرْ أختي في أمري!

ففعل أبو عبيدة، فدخل خالد على أخته فاطمة بنت الوليد، فذكر لها ذلك، فقالت: والله لا يُحبّك عمر أبداً، وما يريد إلاّ أن تكذب نفسك، ثمّ ينزعك. فقبَّلَ رأسها، وقال: صدقتِ والله! فتَمَّ على أمره، وأبى أن يكذب نفسه. فقام بلال مولى أبي بكر إلى أبي عبيدة، فقال: ما أمِرت به في خالد؟ قال: أمِرتُ أن أنزع عمامته وأقاسمه ماله. فقاسمه ماله حتّى بقيت نعلاه. فقال أبو عبيدة: إنّ هذا لا يصلح إلاّ بهذا. فقال خالد: أجل! ما أنا بالّذي أعصي أمير المؤمنين، فاصنع ما بدا لك. فأخذ نعلاً وأعطاه نعلاً. ثمّ قدم خالد على عمر المدينة حين عزله."[٣٣٠]

٣٢٩ــ اليافعي، مرآة الجنان، ص ١٠٢.

٣٣٠ــ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ص ٤٣٦-٤٣٧.

هؤلاء الرجال والقادة العظام تـأدَّبوا بـأدب الإسـلام السـّامي، فلـم يسمحوا لأيّ أمـر مهما كان عظيماً أو حقيراً أن يفرِّق بينهم، كمـا روي عن طـارق بـن شـهاب: "أنّ خالد بن الوليد كان بينه وبين سعد بن أبي وقاص كلام، فذُكِرَ خالد عند سعد، فقال سعد: مَهْ! فإنّ ما بيننا لم يبلغ دينَنا."[٣٣١]

وروي، "أنّ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان كانا يتنازَعان في المسألة بينهما حتّى يقول الناظر: إنَّهما لا يجتمعان أبداً، فما يفترقان إلاّ على أحسنه وأجمله."[٣٣٢]

هؤلاء الرجال العظام الَّذين تخلَّقوا بأخلاق القرآن الحكيم، وبأخلاق الرسول الكريم صـلّى الله عليـه وسـلّم، وصـفهم الله سـبحانه وتعـالى بـأنّهم إخـوان لا غِـلَّ فـي صدورهم لبعضهم، وكفاهم بذلك فخراً ومجداً: (وَنَزَعْنَا مـا فـي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ، لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهـا بِمُخْرَجِينَ.) (الحجر ١٥/٤٧-٤٨)

وتجلّت الطاعة والانضباط في أسمى معانيهما في غزوة الكديد التي ضُربَ فيها طليعة المسلمين ابن مُكَيْث بسهمين في جسده ولكنّه لم يتحرّك أو يصدر عنه أيّ صوت حتى يحفظ سِرِّيَّة هجوم المسلمين، قال: "ثمّ سِرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس، فكُنّا في ناحية الوادي، وبعثني أصحابي ربيئة لهم، فخرجت حتى آتي تَلاًّ مُشرفاً على الحاضر، فأسندت فيه، فعلوت على رأسه، فنظرت إلى الحاضر، فوالله إنّي لمنبطح على التّلّ، إذ خرج رجل منهم من خبائه، فقال لامرأته: إنّي لأرى على التّلّ سواداً ما رأيته في أوّل يومي، فانظري إلى أوعيتك هل تفقدين منها شيئاً، لا تكون الكلاب جرَّت بعضها؟ قال: فنظرتْ، فقالت: لا، والله ما أفقد شيئاً. قال: فناوليني قوسي وسهمين، فناوَلتْهُ. قال: فأرسل سهماً، فوالله ما أخطأ جنبي، فأنْزعُهُ، فأضعه، وثبَتُّ مكاني. قال: ثمّ أرسل الآخر، فوضعه في منكبي، فأنزعه فأضعه، وثبَتُّ مكاني. فقال لامرأته: لو كان ربيئة لقوم لقد

٣٣١ــ رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، أنظر الهيثمي، المجمع، ج ٧، ص ٣٢٣؛ ابن عبد البر، بهجة المجالس، ج ١، ص ٥٧٧.

٣٣٢ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٤.

تحرَّك، لقد خالطه سهمايَ، لاأبا لكِ! إذا أصبحت فابتغيهما، فخُذيهما، لا يمضغهما عَلَيَّ الكلاب. قال: ثمّ دخل."[٣٣٣]

وتجمّع العنصران، نقل المعركة إلى أرض العدوّ، والطاعة والانضباط في غزوة ذات الرِّقاع، سنة ثلاث للهجرة، وسببها: "أنّ قادماً قدم بجَلَب له إلى المدينة، فاشترى بسوق النّبَط، وقالوا: من أين جلبت جَلَبَكَ؟ قال: جئت من نجد، وقد رأيت أنماراً وثعْلَبَة قد جمعوا لكم جُموعاً، وأراكم هادئين عنهم. فبلغ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم قولُهُ، فخرج في أربعمائة من أصحابه...

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أصاب في محالّهم نِسْوة، وكان في السَّبي جارية وَضيئة، كان زوجها يحبُّها، فلمّا انصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم راجعاً إلى المدينة حلف زوجها ليطلبنَّ محمداً ولا يرجع إلى قومه حتى يُصيب محمداً، أو يُهريق فيهم دماً، أو تتخلّص صاحبته.

فبينما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مسيره عشيَّةَ ذات ريح، فنزل في شِعْبٍ استقبله، فقال: مَنْ رجل يكلؤنا (يحرسنا) الليلة؟ فقام رجلان، عمّار بن ياسر وعَبّاد بن بشْر، فقالا: نحن يارسول الله نكلؤك! وجعلت الريح لا تسكن، وجلس الرجلان على فم الشّعب، فقال أحدهما لصاحبه: أيّ اللّيل أحبّ إليك، أن أكفيك أوّله فتكفيني آخره؟ قال: اكفني أوّله، فنام عمّار بن ياسر، وقام عبّاد بن بشر يصلّي، وأقبل عدوّ الله يطلب غِرَّةً، وقد سكنت الريح، فلمّا رأى سواده من قريب، قال: يعلم الله أنّ هذا لربيئة القوم! فقوَّق له سهماً، فوضعه فيه، فانتزعه فوضعه، ثمّ رماه بآخر، فوضعه فيه، فلمّا غلب عليه الدّم ركع وسجد، ثمّ قال لصاحبه:إجلس! فقد أُتِيت. فقام عمّار، فلمّا رأى الأعرابيّ أنّ عمّاراً قد قام علم أنّهم قد نَذِروا به. فقال عمّار: أي أخي، ما منعك أن توقظني به في أوّل سهم رمى به؟ قال: كنت في سورة أقرأها، وهي: "سورة الكهف" فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها، ولولا أنّي خشيت أن أضيِّع ثغراً أمرني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما انصرفت ولو أتى على نفسي.

٣٣٣ــ ابن هشام، سيرة رسول الله، م ٢، ص ٦١٠.

ويروى أنّ صلاة الخوف أوّل ما صلاّها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في تلك الغزوة.[٣٣٤] وصلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلاة الخوف بوحي من الله سبحانه وتعالى: (وَإِذا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنَّ الْكافِرِينَ كانوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا. وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ، فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ، فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ، وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً، وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ، إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذابًا مُّهِينًا.) (النساء ٤/١٠١-١٠٢)

هنالك عدّة دروس مهمّة يمكن استخلاصها ممّا حدث في هذه الغزوة،

١- إنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان دائماً متيقّظاً لحماية المسلمين من أيّ هجوم خارجيّ، فها هو لم يهمل المعلومات الّتي وصلته من الأعراب الوافدين إلى سوق المدينة عن التحضيرات الّتي قامت بها قبيلتا أنمار وثعلبة، بل على العكس قاد بنفسه حملة عسكريّة وهزمهم بهجوم مباغت، فيجب على القائد المخلص لأمّته أن يتمثّل بالرّسول الكريم صلّى اللّه عليه وسلّم.

٢- عبّاد بن بشر، ذلك الرجل المؤمن الّذي تغلّب إيمانه على ألمه، وروحانيته على جسده، لقد أصيب بسهمين كادا يوديان بحياته، لكنّه لم يقطع صلاته، لكن خوفه أن يموت وهو واقف في صلاته قبل أن ينبّه زميله في الحراسة ممّا يفسح المجال للعدوّ أن يهاجم المسلمين على غِرَّة وهم نائمون غارُّون حمله على إنهاء صلاته وتنبيه زميله ليحرس الثغر.

أمران يجب أن ننتبه لهما هنا، وهما: الصلاة أهم من أن يقطعها ألم، وسلامة المسلمين أهم من الاسترسال في الصلاة. هنا رجَّحَ عبَّادُ بن بشْر المصلحة العامَّة، وهي حياة وسلامة الجُند على مصلحته الخاصَّة، ألا وهي الاستمرار في الصلاة.

---

[٣٣٤]ــ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ص ٣٩٥-٣٩٧؛ الذّهبي، تاريخ الإسلام، م١، س١،ص ٢٠١ باختصار.